مجلـــــة العلـــــوم التربـــــوية والدراســـــات الإنســـــانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)

Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

الفساد
في ضوء القرآن الكريم
أسبابه، نتائجه، وعقوباته (*)

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن
اليمن ـ إب
n712849505@gmail.com

*) تاريخ تسليم البحث 16/7/2021. تاريخ قبوله للنشر 28/10/2021.
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

الفساد
في ضوء القرآن الكريم
أسبابه، نتائجه، وعقوباته

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن
اليمن ـ إب

ملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان حقيقة الفساد من خلال القرآن الكريم، وذلك من خلال دراسة بعض الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع، وقد اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي الاستقرائي؛ من أجل الوصول إلى ما يهدف إليه هذا البحث. وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مطالب، المطلب الأول وفيه بيان بعض الأسباب المؤدية إلى الفساد من خلال القرآن الكريم، والمطلب الثاني ذكرت فيه بعض النتائج العملية للفساد في حياة الناس وواقعهم، أما المطلب الثالث فقد ذكرت فيه بعض العقوبات المترتبة على الفساد في الدنيا والآخرة. كما تحدث عنها القرآن الكريم.

وقد توصلت في هذا البحث إلى عدة نتائج، منها: نهى الله تعالى عباده عن الفساد الأرض؛ لماله من نتائج وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، هناك أسباب كثير تؤدي للفساد، منها ما يصل بصاحبه للكفر ومنها دون ذلك، للفساد نتائج عملية تؤثر في حياة الناس وواقعهم، تنتظر المفسدين عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، إن لم يتوبوا إلى الله تعالى من فسادهم قبل لقائه.

كلمات مفتاحية: الفساد، القرآن الكريم.

Corruption in light of the holy guran its reasons, results, and punishments.

Dr. Abdul Raqib Abdo Khaled Abdullah
Assistant Professor at Yemen-based

Abstract

Thes research aims at illustrating the fact of corruption thrughmthe stud of some verses of the holy guran researct. In thes research, ldepend on descriptive extrapolating approach for the purpose of achieving obectives thes research consists of introduction, preface and there demands. The flrst demand shows the reasond leads to corruption as the holy guran stated. In the second demand, lmentioned some practical results for corruption in people life. in the third one, lreferred to some punishments of corruption in life and afterlife as in the holy guran many results were gotten of thes reseach, Allah orders people to avoid corruption for its bad results and horrible punishments in life and on the day of judgement. Thers are many causes leads to corruption, some of these leads his doer to disbelief. Corruption affecs people life and punishments waiting corrupt ones in their daily life as they don,t repent to Allah before they meet him in the afterlion.

Key words: Corruption, Discourse, The holy guran.

المقدمة

الفساد ظاهرة عالمية تشكو منها كل المجتمعات البشرية والدول، ولا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات البشرية في القديم أو الحديث، والمتتبع لظاهرة الفساد يُقر بوجودها في كل زمان ومكان . وإن اختلف حجمه وتباينت آثاره . تبعاً لاختلاف التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل دولة، ومدى جديت تلك المجتمعات والدول في تطبيق القوانين التي سنتها لمحاربة ظاهرة الفساد، إلا أن الفساد اتسع نطاقه في عالمنا المعاصر، رغم التقدم الهائل الذي وصلت إليه البشرية في مختلف المجالات والأصعدة.

وقد حازت ظاهرة الفساد على اهتمام كل المجتمعات والدول، وتعالت الأصوات إلى إدانتها والحد من انتشارها وَوُضِعت القوانين وَسُنت التشريعات للحد من هذه الظاهرة، مما دفع الباحثين- على اختلاف مناهجهم- إلى البحث أسباب الفساد وذكر مخاطره ونتائجه وبيان عقوباته ومآلاته، وقد كان الإسلام سباقا للحديث عن ظاهرة الفساد، وهو ما سنتعرف عليه من خلال هذا البحث، والذي سنقف من خلاله على حديث القرآن الكريم عن الفساد، فقد ذكر بعضاً من أسبابه ومظاهره وبين نتائجه وعواقبه.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يعود اختياري لموضوع الفساد لجملة من الأسباب من أهمها:

١- تحدث القرآن الكريم عن الفساد حديثا مطولا؛ مما يستدعي الوقوف أمام هذا الموضوع، ودراسته دراسة قرآنية موضوعية.

٢- المساهمة في معالجة بعض قضايا العصر من خلال القرآن الكريم؛ مما يعزز القناعة لدي أبناء المسلمين بأن القرآن الكريم يجب أن يكون حاضرا في علاج كافة قضاياهم وقضايا البشرية في كل زمان ومكان.

٣- لما لانتشار الفساد في المجتمعات من مخاطر وآثار؛ ذلك أن انتشار هذا الداء واستشرائه في أمة من الأمم يعتبر مقدمة لهلاكها وزوالها.

٤- حاجة موضوع الفساد لمزيد من البحث والتأصيل خاصة من الجانب الإسلامي القرآني، والذي لم تتطرق له أغلب الدراسات المعاصرة، التي تتحدث عن الفساد.

أهداف البحث

١- دراسة بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالفساد دراسة موضوعية قرآنية.

٢- معرفة بعض أسباب الفساد التي تحدث عنها القرآن الكريم.

٣- ذكر بعض النتائج العملية الناتجة عن الفساد، كما ذكرها القرآن الكريم

٤- بيان بعض عقوبات الفساد ومخاطره في الدنيا والآخرة.

مشكلة البحث

الفساد من المشكلات التي تؤرق كثيرًا المجتمعات البشرية اليوم، وتعاني منها دول العالم المختلفة؛ وذلك أنه ينتج عن الفساد مشكلات أخرى في مختلف جوانب الحياة السياسة، والاقتصادية، والاجتماعية؛ لذلك كان الوقوف على بعض أسباب الفساد، ومعرفة بعض مظاهرة، وبيان بعض عقوباته، من خلال القرآن الكريم من الأهمية بمكان؛ حتى تحذر المجتمعات المسلمة- وغيرها- هذه الآفة الخطيرة والمهلكة.

تساؤلات البحث

يجيب هذا لبحث عن الأسئلة التالية:

١- ما لمراد بالفساد الذي تحدث عنه الله تعالى في كتابه الكريم؟

٢- ما هي أسباب الفساد التي جاء ذكرها في كتاب الله تعالى؟

٣- ما هي مظاهر الفساد التي أشار إليها القرآن الكريم؟

٤- ما هي عقوبات المفسدين في الدنيا والآخرة كما تحدث عنها القرآن الكريم؟

حدود البحث

للبحث حدود موضوعية، وهي بعض الآيات القرآنية التي تحدث فيها القرآن الكريم عن الفساد، وما ارتبط بها من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال أهل التفسير.

منهج البحث

سلك الباحث في بحثه المنهج الوصفي الاستقرائي؛ وذلك من خلال اختيار بعض الآيات التي تحدث فيها القرآن الكريم عن الفساد، وتقسيمها- بحسب دلالاتها- إلى مطالب مع الاستفادة من أقوال المفسرين وآرائهم حول هذه الآيات.

الدراسات السابقة

موضوع الفساد من الموضوعات التي كتب فيه أهل العلم كتبا كثيرة في القديم والحديث، وقد تناولوه من زوايا متعددة ومختلفة، ومن أبرز الدراسات والكتب التي وقفت عليها في هذ الموضوع ما يلي:

١- **الفساد والمفسدون "دراسة قرآنية موضوعية"**، رسالة ماجستير، لضياء نعمان السوسي، إشراف الدكتور عبد السلام حمدان اللوح، نوقشت هذه الرسالة في الجامعة الإسلامية غزة، كلية أصول الدين عام ١٤٢٧هـ- الموافق٢٠٠٦م، وهذا البحث تحدث فيه صاحبه حديثاً مطولاً عن أنواع الفساد والذي يتمثل بفساد العقيدة وفساد الأخلاق والنيات، وذكر فيه نماج من المفسدين كفرعون وقارون ويأجوج ومأجوج، وقوم لوط وبني إسرائيل، وهو مالم نتناوله في بحثنا هذا، والتقى بحثي مع هذا البحث في بعض المباحث كذكر بعض أسباب الفساد، فصاحب البحث في الغالب يذكر أسبابا للفساد تتعلق بالمعاصي والسيئات كالترف والفراغ والإسراف، والهوى، ونحن ذكرنا أسباباً أخرى كالكفر والشرك والنفاق، بالإضافة إلى ذكر بعض المعاصي والسيئات، وتفرد هذا البحث بذكر بعضاً من نتائج الفساد العملية في الدنيا، كسفك الدماء وقطيعة الأرحام، والسحر وأكل أموال اليتامى، وذكرنا بعضاً من عقوبات المفسدين في الدنيا والآخرة.

٢- **مفهوم الفساد وأنواعه في ضوء نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة** أ. د البشير على حمد الترابي، بحث منشور في مجلة جامعة القرآن الكرين والعلوم الإسلامية، السودان العدد الحادي عشر ١٤٢٦هـ- الموافق ٢٠٠٥م، حيث ركز فيه صاحب البحث على مفهوم الفساد في الأرض، وذكر أنوعا للفساد كالفساد، العقدي والأخلاقي والمالي والفساد الأخلاقي، ولم يذكر أسباب الفساد ونتائج وعقوبات المفسدين، وهو ما عنى به هذا البحث.

٣- **الفساد ومنعكساته الاقتصادية والاجتماعية**، للدكتور حسن أبو حمود، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق- المجلد الثامن عشر- العدد الأول-٢٠٠٢، وهو بحث تحدث فيه صاحبه عن آثار الفساد على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والادارية ولم يتناوله من زاوية قرآنية موضوعية وهو ما عنيت به هذه الدراسة.

٤- **الفساد السياسي**، للشيخ محمد الغزالي الناشر: دار نهضة مصر الطبعة: الأولي، وقد تحدث فيه الشيخ فيه الشيخ عن الفساد بصور عامة ولم يتناوله كدراسة موضوعية، وهو ما اشتمل عليه هذا البحث.

خطة البحث

اقتضت خطة البحث أن تتكون من مقدمة، وتمهيد، ثلاثة مطالب، وخاتمة:

المقدمة: ذكرت فيها، أهمية البحث، وأهدافه، مشكلة البحث، تساؤلاته، وحدود البحث، منهجية الباحث التي سار عليها، والدراسات السابقة في الموضوع، وخطة البحث.

وخطة البحث تتضمن ما يلي:

التمهيد: يشتمل على التعريف بمصطلحات البحث، وبيان نهي القرآن الكريم عن الفساد.

المطلب الأول: من أسباب الفساد التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: بعض نتائج الفساد التي أشار إليها القرآن الكريم

المطلب الثالث: من عقوبات المفسدين في القرآن الكريم.

الخاتمة: تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد ويشتمل على:

التعريف بمصطلحات البحث، وبيان النهي عن الفساد ومدافعته

أولا: الفساد في اللغة

الفساد: مصدر فسد يفسد فسادا وهو ضدّ الصّلاح يقال:" يقال (فَسَدَ) الشيء، (يَفسُدُ) بالضم (فساداً) فهو (فاسد) و(أفسده ففسد)، والفسادُ نقيض الصلاح، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الروم: ٤١]، والفساد هنا الجدب في البر، والقحط في البحر، يعني المدن التي على ضفاف الأنهار، وقالوا: هذا الأمر مفسدةٌ لكذا أي: فيه فساد، (وفَسَّدَ) الشيء إذا أهلكه، والفساد: تغيّر الشيء وتلفه"[(١)]، وقال ابن فارس: الفاء والسّين والدّال كلمة واحدة، فسد الشّيء يفسد فسادا، وهو فاسد وفسيد، والمفسدة ضد المصلحة"[(٢)]

ثانياً الفساد في الاصطلاح

قال الإمام الراغب الأصفهاني: "الفَسَادُ: خروج الشيء عن الاعتدال، كان الخروج عنه قليلا أو كثيرا، ويضادّه الصّلاح، ويستعمل ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة،[(٣)]، وقال ابن

(١) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة الأولى ٣٣٥/٣، باختصار وتصرف.

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكَرِيّا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، الناشر : اتحاد الكتاب العرب الطبعة: ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢م. ٤٠١/٤.

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت(٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن تحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ، صـ ٦٣٦.

الجوزيّ: والفساد: "تغيّر الشّيء عمّا كان عليه من الصّلاح، وقد يقال في الشّيء مع قيام ذاته ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال، ويذكر الفساد في الدّين كما يذكر في الذّات. فتارة يكون بالعصيان، وتارة بالكفر، ويقال في الأقوال إنّها فاسدة إذا كانت غير منتظمة، وفي الأفعال إذا لم يعتدّ بها"(١)، وقال الكفويّ: "الإفساد هو جعل الشّيء فاسدا خارجا عمّا ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعا به، وهو في الحقيقة: إخراج الشّيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح"(٢)، وعرَّف الإمام الزمخشري الفساد بقوله: والفساد: "خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به، ونقيضه الصلاح، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة"(٣).

وبالتأمل في التعريفات السابقة للفساد نخلص إلى أن: الفساد ضد الصلاح، وكل ما يخرج عن وضعه الذي يكون به صالحا نافعا يقال: إنه قد فسد، وهذا يعني أن الفساد: تحول الشيء من حالته الطبيعية المقبولة إلى حالة أخرى غير مقبولة.

ثالثاً: الفرق بين الفساد والبطلان

قد يتساءل البعض قائلاً: ما لفرق بين الشيء الفاسد والباطل؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقول الإمام الكفوي رحمه الله: "الفاسد ما أمكن الانتفاع به رغما عن رداءته، من قولهم: فسد اللّحم إذا أنتن، والباطل ما لا يمكن أن ينتفع به، من قولهم: بطل اللّحم إذا دوّد وسوّس بحيث لا يمكن الانتفاع بهو، الفساد أعمّ من الظّلم؛ لأنّ الظّلم النّقص، فإنّ من سرق مال الغير مثلا فقد نقص حقّ الغير، أمّا الفساد فيقع على ذلك وعلى غيره كالابتداع واللهو واللّعب"(٤). وقال المناوي: "الفساد عند الفقهاء: ما كان مشروعا بأصله غير مشروع بوصفه، والفساد عند الحكماء: زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة"(٥).

رابعاً: نهي القرآن الكريم عن الفساد

"جعل الله تبارك وتعالى للكون نظاماً متناسقاً، ينسجم كل جزء من أجزائه في أداء الدور المنوط به مع بقية الأجزاء، في نظام عجيب غريب، ولا يكاد جزء منها يُخل بدوره، وأي فساد أو خلل في جزءٍ منه ربما يحدث اضطراباً لنظام الكون برمته"(٦)، فالكون يفسد نظامه، ويختل بناؤه، إذا خرج عن النظام الذي رسمه الله تعالى له، وبالمثل فقد جعل الله تعالى لهذا الإنسان نظاما لصلاح حياته ومعاده، وهذا النظام الذي جعله الله تعالى لصلاح حال الإنسان هو دين الإسلام، فإذا سار عليه الإنسان والتزم به حصل على السعادة في الدنيا والآخرة، وإذا خرج عنه وتنكب الطريق واتبع السبل فسدت حياته بالضلال والشقاء وأخرته بالعذاب والعمى، ولما للفساد من مخاطر على الكون والوجود فقد جاء النهي الرباني عن

(١) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت(٥٩٧هـ)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، صـ٤٧٠.

(٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، كتاب الكليات، تحقيق : عدنان درويش، ومحمد المصري، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، صـ٢٢٠.

(٣) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ت(٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة ١٤٠٧هـ، ٦٢/١.

(٤) الكفوي، الكليات، مرجع سابق صـ٦٩٢، بتصرف يسير.

(٥) عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين المناوي القاهري ت(١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف الناشر: عالم الكتب - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، صـ٢٦٠باختصار

(٦) شيخنا العلامة البرفسور/ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، كتاب توحيد الخالق، الناشر دار السلام للطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية ١٩٨٥م، صـ٣٣.

الفساد في الأرض قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "قال أكثر المفسّرين: أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدّعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله لها ببعث الرّسل، وبيان الشّريعة، والدّعاء إلى طاعة الله، فإنّ عبادة غير الله والدّعوة إلى غيره والشّرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل ومن تدبّر أحوال العالم وجد كلّ صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكلّ شرّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدوّ وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله، والدّعوة إلى غير الله ورسوله، ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"(١).

خامساً: مدافعة الفساد في ضوء القرآن الكريم

في حال وجود الفساد وانتشاره في مكان ما أوجب الله تعالى على عبادته مدافعته ومواجهته بكل الطرق الممكنة وبكل الوسائل المتاحة؛ وذلك أن انتشار الفساد ـ بدون مواجهته ومدافعته ـ يعني فساد الأرض ومن عليها، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، قال الشيخ الشعراوي معلقاً على هاتين الآيتين: "يدفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لأن هناك أناساً يريدون الشر وأناساً يريدون الخير، فمن يريد الخير يدفع من يريد الشر، وعندما نتأمل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول، لقد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم، فكان هذا هو مبرر القتال، وهذا ما تحدثت عنه آية سورة الحج في قوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾، والسياق مختلف في الآيتين، فالسياق الذي يأتي في سورة البقرة يتحدث عن أناس يحاربون بالفعل، والسياق الذي أتي في سورة الحج يتحدث عن أناس مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا من مكة لينضموا إلى أخوتهم المؤمنين في المدينة دار الإيمان ليعيدوا الكرة، ويدخلوا مكة فاتحين، وهنا نجد وحدة جامعة بين الآيتين، وهي الخروج من الديار، فمرة يكون دفع الفساد بأن تَفِرَّ لِتَكِرَّ، ومرة يكون دفعه بأن تقاتل بالفعل، والخروج نفسه نوع من مدافعة الفساد؛ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا في مكة فربما أفناهم خصومهم فلا يبقى للإسلام خميرة، فذهبوا إلى المدينة وكوّنوا الدولة الإسلامية ثم عادوا منتصرين

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، التفسير القيم، تحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية إشراف الشيخ إبراهيم رمضان الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٠هـ، صـ٢٦٤ باختصار.

فـاتحين، فقولـه تعـالى فـي سـورة البقـرة: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ شرحه قوله تعالى في سورة الحج بقوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾"[1].

فمن سنن الله التي أوجدها في الكون سنة التدافع بين أهل الخير والصلاح وبين أهل الشر والفساد، ولولا مدافعة أهل الخير لأهل الشر لعم الفساد في الأرض ولتعطلت كثيرا من مصالح الخلق، لهذا جعل الله تعالى النهي عن الفساد ومدافعته سبباً من أسباب النجاة، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود : ١١٦]، ونحسب أن بحثنا هذا يعد لوناً من ألوان مدافعة الفساد؛ وذلك من خلال بيان أسباب الفساد وذكر نتائجه آثاره، وتجلية عقوباته في الدنيا والآخرة ؛ حتى يحذر المسلم أسباب الفساد لينجوا من عقوباته في الدنيا قبل الآخرة، وسوف ينتظم الحديث في هذا البحث في ثلاثة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: من أسباب الفساد التي ذكرها القرآن الكريم

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أسبابا كثيرة للفساد، وهذه الأسباب متعددة ومتنوعة، منها ما يصل بصاحبه إلى درجة الكفر، ومنها ماهي دون ذلك، كالشرك والنفاق، والذنوب والمعاصي، والملك والسلطان، وسوف نذكر هذه الأسباب في هذا المطلب، حسب ما يقتضيه المقام النحو التالي:

السبب الأول: الكفر

المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن حديث القرآن الكريم عن الكفر والكافرين قد أخذ مساحة كبيرة من كتاب الله تعالى؛ وذلك أن الله تعالى إنما بعث أنبياءه ورسله لإنقاذ الناس من الكفر وجعلهم عبيدا له وحده؛ ولأن الكفر رأس كل فساد وسبب كل وبلية فقد خاض أنبياء الله ورسله صراعا مريرا مع أهل الكفر، الذين فسدت عقائدهم وتصوراتهم عن الله تعالى، فعبدوا غير الله تعالى من الأصنام والأهواء والشهوات، لهذا كانت الصيحة الأولى لأنبياء الله ورسله أنهم دعوا أهل الكفر إلى عباد الله تعالى وترك معبوداتهم الفاسدة من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، وقد تكرر هذا النهي من نبي الله شعيب عليه السلام في موطن آخر في سورة الأعراف، بشكل موسع حيث أدخل إلى جانب النهي عن الفساد في العبادات النهي عن الفساد في المعاملات قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام أرسله الله داعية إلى فرعون وملئه وكان قد أراهم بعضاً من الآيات والمعجزات الدالة على نبوته ورسالته، لكنهم ـ بسبب كفرهم ـ حجدوا تلك الآيات والمعجزات واستمروا بكفرهم وفساد معتقدهم؛ فاستحقوا عذاب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ

(١) محمد متولي الشعراوي ت(١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم عام ١٩٩٧م، ١٠٦٢/٢، باختصار وتصرف.

مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٣- ١٤]، وفي موطن آخر يسمي الله تعالى جحود فرعون وملئه لتلك الآيات والمعجزات التي أيد الله بها موسى بأنه ظلما وعلوا؛ لأنهم بذلك ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الإيمان بالله تعالى، واستمرارهم في كفرهم العقدي وبفسادهم الإيماني؛ فاستحقوا بذلك أن يهلكهم الله وأن يجعلهم عبرة لكل فاسد في مجال الكفر بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، قال سيد قطب: "إنهم مفسدون؛ لأنهم كفروا وجحدوا بآيات الله تعالى؛ ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد، وأشنع الإفساد، إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد، والعبودية لإله واحد، وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس، إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس إلهاً واحد، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة، وشهوات البشر الصغيرة، إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد – من دون الله– وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده – عقيدة وعبادة وشريعة – وما تحرر الإنسان قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة، ومن ثم يقول الله سبحانه عن فرعون وملئه ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ وكل طاغوت يُخضع العباد لشريعة من عنده، وينبذ شريعة الله، هو من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون"(١).

وقد ذكر الله تعالى في كتبه الكريم أن فساد أهل الكفر قادهم إلى الاستهزاء بالأمثال التي ضربها الله لهم في كتابه الكريم، ونقضهم للعهود والمواثيق، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فأدي بهم ذلك للخسران المبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، ووصل فساد أهل الكفر بهم إلى أن قادهم للصد عن سبيل الله تعالى، فاستحقوا بذلك أن يضاعف الله لهم العذاب يوم القيامة، بأن يحملوا أوزارهم وأوزار الذين أضلوهم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨]، ومن عدل الله تعالى أنه لا يسوي بين أهل الإيمان وأهل الفساد من أهل الكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

فالكفر بالله تعالى هو أساس كل فساد ورأس كل بلية في الدنيا والآخرة، فليحذره المسلم وليحذر الطرق الموصلة إليه.

(١) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن دار النشر: دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٣٤٥/٣.

السبب الثاني: الشرك

بنى الله سبحانه وتعالى السموات والأرض بناءً محكما، وسيرهما وفق إرادته بنظام دقيق، ولوا تبع الحق سبحانه وتعالى أهواء المشركين وجعل إلى جواره شريكا له في الملك، لفسد نظام السموات والأرض، ولحصل نزاع بين الآلهة المختلفة في الأهداف والتوجهات، فإله يريد أن يميت شخصا، والآخر يريد له الحياة وطول العمر، والإله الآخر يريد أن يسقي عباده الغيث والمطر والآخر يريد أن يمنع عنهم ذلك، وبالمثل لو كان لله تعالى شريكا في الأرض لفسدت الأرض؛ فكل آلهة ستضع للناس تشريعا ونظاما يتوافق مع ميولها ورغباتها، وهذه التشريعات والنظم قد تتعارض مع ميول ورغبات الآلهة الأخرى، مما سيؤدي لحصول النزاع الخصام بين الآلهة المتعددة، وبالتالي ستفسد الحياة على وجه الأرض، قال ابن القيم: "وفساد الأرض في الحقيقة إنّما هو بالشّرك بالله ومخالفة أمره، فالشّرك والدّعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متّبع غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلّا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدّعوة له لا لغيره، والطّاعة والاتّباع لرسوله، وغيره إنّما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أما إذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة"(١)، وصدق الله القائل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، قال ابن عاشور، معلقاً على هذه الآية، في كلامٍ نفيس له نثبته هنا بتمامه، لأهميته: "وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له؛ ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج "لبيكَ لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه ومَا ملك"، وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء، وفي هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله هو خالق السماوات والأرض.

وهذه الآية مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع، إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم، والفساد الحاصل بالشرك هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء، ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين، فيبطل الانتفاع بما فيهما، ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفاً بصفات الإلهية المعروفةِ آثارها، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف، ولا جرم أن تختلف متعلقات إرادات الآلهة باختلاف مصالح رعاياهم أو مواطنهم أو أحوال تصرفاتهم فكل يغار على ما في سُلطانه، فثبت أنّ التعدد يستلزم اختلاف الإرادات وحدوثَ الخلاف، وكل واحد منهم يدافع عن نفسه بغزو ضده وإفساد ملكه وسلطانه، تعين أنه كلما توجه واحد منهم إلى غزو ضده أن يُهلك كلَّ ما هو تحت سلطانه فلا يزال يَفْسُد ما في السماوات والأرض عند كل خلاف كما قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو

(١) ابن القيم، التفسير القيم، مرجع سابق، صـ ٢٦٤، باختصار.

تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفاً بصفات الإلهية المعروفةِ آثارها، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف، ثم إن التعدد يقتضي اختلاف متعلقات الإرادات والقُدَر لأن الآلهة لو استوت في تعلقات إراداتها ذلك لكان تعدد الآلهة عبثاً للاستغناء بواحد منهم، وقد دلت مشاهدة دوام السماوات والأرض على انتظامهما في متعدد العصور والأحوال على أنّ إلهَها واحد غير متعدد، وفُرِّعَ على هذا الاستدلال إنشاءُ تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ أي عما يصفونه به من وجود الشريك"(١).

فالشرك بالله تعالى سبب من أسباب حصول الفساد في نظام السموات والأرض؛ فحري بكل مسلم صادق في إيمانه أن يبتعد عن الشرك وطرق المشركين؛ وذلك أن الشرك ظلم عظيم وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

السبب الثالث: النفاق

لخطورة المنافقين وشدة فسادهم؛ فقد حذر الله تعالى منهم في كتابه الكريم، وذكر كثيرا من صفاتهم في سبع عشرة سورة من سور القرآن الكريم(٢)، قال العلامة ابن القيم: "كاد القرآن أن يكون كله في شأن المنافقين؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم؛ لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول: اللهم أهلك المنافقين فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك"(٣)، فالنفاق سبب من أسباب الفساد في الأرض، وقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم هم المفسدون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١١-١٣]، قال ابن القيم "فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أمورا: **أحدها:** تكذيبهم **والثاني:** حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ **والثالث:** وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، فنفى شعورهم بفسادهم وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدا ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساده

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير التنوير، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧، ٣٩/١٧، باختصار وتصرف.

(٢) وبيان ذلك أنه في سورة البقرة بين الله تعالى فسادهم ومرض قلوبهم بنفاقهم، في سورة آل عمران ذكر جزعهم وتخذيلهم للمؤمنين، وفي النساء ذكر إعراضهم عن حكم الله ورسوله، وفي سورة المائدة ذكر موالاتهم للكفار، وفي سورة الأنفال ذكر شكهم في وعد الله بالتمكين للدين وللمؤمنين، وفي سورة التوبة ذكر نكوصهم عن الجهاد والطعن في المؤمنين، وفي سورة الحج ذكر قلة ثباتهم، وفي سورة النور ذكر انتقاءهم من الدين ما يوافق أهوائهم، وفي سورة العنكبوت ذكر قلة صبرهم، وفي سورة الأحزاب ذكر إخلافهم عهد الله، وفي سورة محمد ذكر خوفهم وجبنهم، وفي سورة الفتح ذكر سوء ظنهم بالله، وفي سورة الحديد ذكر اغترارهم بالأماني، وفي سورة المجادلة ذكر حلفهم الأيمان الكاذبة، وفي سورة الحشر ذكر خذلانهم لأوليائهم من اليهود، وفي سورة المنافقين ذكر الله قلة أدبهم مع رسول الله ومع المؤمنين، وفي سورة التحريم ذكر الله تعالى استحقاقهم الغلظة في فهذه سبع عشرة سورة مليئة بالتحذير منهم ومن صفاتهم.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ -١٩٧٣، ٣٥٨/١.

مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، فنفى الشعور عنهم بالفساد الواقع منهم متضمن لفساد آلات إدراكهم، فتضمنت هذه الآية بيان فساد آلات إدراكهم؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحا والشر خيرا"(١).

ومن صور فساد المنافقين في الأرض سعيهم لإفساد الحرث والنسل قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، قال ابن عباس: "لما أصيبت السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجلان من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم فأنزل الله تعال هذه الآية، وقال السدي: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي، وهو حليف بني زهرة أقبل إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة فأظهر له الإسلام وأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وقال إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني لصادق، ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾(٢).

وسعي المنافقين للفساد في الأرض يحتمل أن يكون: "بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتآمر على المسلمين بما يضرّهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمله الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له سعي، وهذا هو الظاهر من هذه الآية، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا"(٣).

وقال ابن القيم: "فإن بلية الإسلام بالمنافقين شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد، فلِلَّه كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها، وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾(٤).

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، وعادل عبد الحميد العدوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ ٤/ ٩٤١باختصار وتصرف يسير.

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، أسباب نزول القرآن ت(٤٦٨هـ)، تحقق: كمال بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ، صـ٦٦، وينظر: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت (٩١١)، لباب النقول في اسباب النزول، ضبط وتصحح احمد عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان صـ٢٩، وينظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، العجاب في بيان الأسباب، دار النشر: دار ابن الجوزي الدمام، المملكة العربية السعودية ١٩٩٧الطبعة : الأولى صـ١٥٤.

(٣) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ت (١٢٥٠هـ)، فتح القدير: الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ، ٢٣٩/١، باختصار وتصرف يسير.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين مرجع سابقً، صـ٣٤٧، باختصار.

فالنفاق سبب من أسباب الفساد في الأرض، فليحذر منه المسلم، وليحذر من صفات المنفقين، العملية والاعتقادية؛ وذلك أن عاقبة فساد المنافقين في الآخرة وخيمة كما قال تعال ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

السبب الرابع: الملك والسلطان

"الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، وهناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة؛ لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة، لا يؤتمنون على دين الله، ولا دنيا الناس، ومع ذلك فقد عاشوا آمادا طويلة، وقد عاصرت حكاما تدعو عليهم الشعوب، ولا نراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه، انتفع بهم الاستعمار الشرق والغربي على سواء، في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه، بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية، ولا حرية اجتماعية"(١)، فالسلطات المطلقة بأيدي الملوك والرؤساء، سبب من أسباب الفساد في الأرض؛ وذلك أن النفس الإنسانية تميل إلى الطغيان– إذا لم يوجد من يأخذ على يديها ويحاسبها – وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٣٤]، وقد ذكر الله لنا في كتابه الكريم، نماذج ممن ملكوا في الأرض فأدى بهم ملكهم إلى الفساد والطغيان، وفرعون أوضح مثال ذكره الله تعالى في كتابه الكريم وقد صفه الله تعالى أنه من المفسدين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤]، قال ابن عاشور: "التكبر والتجبر في الملوك مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، فهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين"(٢).

إن أهل الملك والسلطان وهم يمارسون فسادهم وإجرامهم في حق شعوبهم يعملون على الصاق تهمه الفساد بغيرهم، ويحاولون الظهور أمام شعوبهم أنهم حريصون على استقرار تلك المجتمعات، وما بقى لهم إلا محاربة المفسدين من أهل الحق، الذي يسعون– من وجهة نظر أهل الملك والسلطان– للفساد في الأرض، عن طريق تغيير دين الناس وعقائدهم، وصدق الله حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، ويا للعجب! ففرعون الذي يعيث في الأرض فساداً، فقد قتّل من بني إسرائيل العشرات، بل والمئات والآلاف، كل هذا الإجرام– في نظره– لا يسمى فساداً، وموسى الذي يتحرك بدعوته للناس بطريقه سليمه هذا العمل من وجهة نظر الفرعون هو الفساد الذي ينبغي للجماهير أن تسانده في حربه للقضاء عليه.

(١) محمد الغزالي، الفساد السياسي : الناشر: دار نهضة مصر الطبعة الأولي، صـ٢.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٦٨/٢٠.

والملأ من قوم فرعون وحاشيه– المنتفعين من بقاء ملكه وسلطانه– حرَّضوا فرعون على موسى ومن آمن معه بتهمة أنهم مفسدون في الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ومفهوم الإفساد من وجهة نظر الملأ هو: "إبطال أصول ديانتهم، وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحث بني إسرائيل على الحرية، ومغادرة أرض العبودية لفرعون، ومعنى وقولهم: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ إي: يتركون تأليهك وتعظيمك، وينهون الناس عن عبادة آلهتك"(١)، وقد بين الله تعالى في سورة الفجر أن فساد فرعون وملئه كان كثيرا وكبيرا فقال تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الفجر: ١٠–١٢]، قال سيد قطب: "وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال، إن الفساد يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف؛ وكذلك قال فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٤] عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد، والفساد يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية، ثم إن الفساد يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة؛ لأنها خطر على الطغاة والمفسدين، فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صور الفساد البشعة، وهو فساد أي فساد"(٢).

وللحد من فساد الملوك والرؤساء جاء الإسلام بمبدأ عظيم، وهو مبدأ الشورى، فلا يحكم الأمة ويتولى أمرها إلا من اختارته الأمة بكامل حريتها، وارتضته ليتولى أمرها بمحض إرادتها، ولها حق مراقبته وعزله، في حال فساده وعجزه، وللأسف الشديد هذا المبدأ غُيِّبَ في كثير من بلدان المسلمين؛ فانشر الفساد في معظم نواحي الحياة، ولا علاج لهذا النوع الفساد إلا بعودة الأمة إلى تطبيق تعاليم دينها في جوانب الحكم والسياسة.

السبب الخامس: الذوب والمعاصي

الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الناس، من أسباب الفساد في الأرض، وهذا السبب من أسباب الفساد له تأثير مباشر على الحياة في البر والبحر، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]، وقد ذكر أهل التفسير أقوالاً تبين المراد بالفساد في هذه الآية **أحدها:** ارتكاب المعاصي، قاله أبو العالية، وقال: مَنْ عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، **الثاني:** نقصان البَرَكة، قاله ابن عباس. **الثالث:** القحط وقلة الأمطار، قاله عطية ويحيى بن سلام: **والرابع:** الشِّرك، قاله قتادة، والسدي(٣)، قال

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٥٨/٩ باختصار وتصرف.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٣٤/٨، باختصار وتصرف.
(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن على ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت: ١٤٢٢هـ، ٤٢٥/٣، وينظر: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان٣١٧/٤.

الإمام الشوكاني: "والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف، ونقصان الزروع والثمار"(١).

وقد تنوعت عبارات أهل التفسير بالمراد بالبر والبحر الوارد ذكرهما في هذه الآية :" قال ابن عباس: المراد بالبر هاهنا: الفَيَافي، وبالبحر: الأمصار والقرى، ما كان منها على جانب نهر، وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر: البحر المعروف، وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر: جزائره، وقال زيد بن رُفَيْع: فساد البر انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وفساد البحر بأن تعمى دوابه، وقال مجاهد: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غصبا والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر"(٢).

وقال العلامة ابن القيم معلقاً على هذه الآية: "ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن والمراد بالفساد والنقص والشر والالآم التي يُحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة، ومن عقوبات المعاصي في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ومحق بركاتها، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود فمنع أصحابه من دخول ديارهم إلا وهم باكُون، ومنعهم من الشُرب من مياه آبارهم لتأثير شؤم المعصية في الماء(٣)، ومن شؤم الذنوب والمعاصي في الثمار، وما ترى بها من الآفات، قال الإمام أحمد: وُجِدَتْ في خزائن بعض بني أمية حنطةٌ الحبة بقدر نواة التمرة، وهي في صرةٍ مكتوب عليها: كان هذا يَنْبُتُ في زمن من العدل، وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب والمعاصي"(٤).

وأصحاب الحجر من قوم ثمود الذين كذبوا نبي الله صالح عليه السلام، كان من أسباب هلاكهم أنه كان في مدينتهم تسعة رجال يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ولم ينكر عليهم أحدا فسادهم هذا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٤٨–٥٢]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية: "كان في مدينة صالح – وهي حِجر ثمود– تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض، كفرهم

(١) الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق٥/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت(٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٣١٩/٦، باختصار وتصرف.

(٣) عن عبدالله بن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة": ينظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت برقم (٤٠).

(٤) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت صـ: ٦٦ باختصار وتصرف، وينظر: ابن القيم، التفسير القيم، مرجع سابق صـ٤٣٢.

بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خصّ الله جلّ ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين؛ لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود"(١).

ومن الوان الفساد في الأرض ارتكاب فواحش الذنوب وكبائرها، كاللواط، وقطع الطريق، واتيان المنكرات، وهذا اللون من المعاصي مارسه قوم لوط فاستحقوا أن يهلكهم الله، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠]، وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن نوع العذاب الذي حل بقوم لوط، المفسدين في الأرض بارتكابهم جريمة اللواط، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

فالذنوب والمعاصي سبب من أسباب الفساد في الأرض، ومرتكبوها - إن لم يتبوا إلى ربهم سبحانه وتعالى- قد يُعاجِلُ الله لهم العقوبة في الدنيا مع ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

المطلب الثاني: من نتائج الفساد كما يذكرها القرآن الكريم

إذ انتشر الفساد في مجتمع ما، ولم يوجد في المجتمع من ينكر على أهل الفساد فسادهم؛ امتثالا لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود: ١١٦]؛ إلا ظهرت في هذا المجتمع نتائج خطيرة لانتشار الفساد، وهذه النتائج متعددة ومتنوعة، منها سفك الدما، والسحر، وأكل أموال اليتامى بغير حق، وقطيعة الرحم، وسوف نتناول هذه النتائج في هذا المطلب على النحو التالي:

النتيجة الأولى: سفك الدماء

خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، فنفخ فيه من روحه، واسجد له ملائكته، وجعله خليفته في أرضه، وفضله على كثير مما خلق تفضيلا، ولكرامة الإنسان عند ربه، فقد أمر الله تعالى بحفظ النفس الإنسانية، وحرَّم قتلها وسفك دمها، ولو من صاحبها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء:٢٩]؛ ولما أخبر الله تعالى ملائكته بأنه سيجعل آدم خليفة له في الأرض، وأعلمهم بما سيكون عليه حاله في الأرض، تعجبت الملائكة من ذلك وقالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠]، وفعلاً فقد كان سفك الدم بالقتل أول جريمة فساد ارتكبت في الأرض حينما قتل قابيل هابيل(٢).

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن ت(٣١٠هـ)، تحقق : أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ٤٧٧/١٩.

(٢) فعن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل" صحيح مسلم، مرجع سابق، برقم (٣١٧٧).

ولما يترتب على سفك الدماء من مضار، فقد عد الله تعالى في كتابه الكريم قتل النفس بغير حق، لونا من الوان الفساد في الأرض، وحكم الله تعالى على من قتل نفسا واحدة بغير نفس أنه كمن قتل الناس جميعا، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة: ٣٢]، والقصاص شريعة جعلها الله تعالى في كل الأديان السابقة للإسلام؛ للحد من الفساد في جانب سفك الدماء في الأرض، وهنا يبرز تساؤل فحواه: لماذا خص الله تعالى بني إسرائيل بالذكر أثناء حديثه عن قتل الأنفس وسفك الدماء مع أن سفك الدماء والقتل موجود في كل الأمم؟ وللإجابة على هذا التساؤل قال الإمام الشوكاني: "وخصّ بني إسرائيل بالذكر؛ لأن السياق في تعداد جناياتهم وجرائمهم؛ ولأنهم أوّل أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء"(١)، وقال سيد قطب معلقاً على هذه الآية: "من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر؛ وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة بغير حق كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً؛ لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس، فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته؛ الحق الذي تشترك فيه كل النفوس، كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع هو استحياء للنفوس جميعاً؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً"(٢).

ورغم علم اليهود بفظاعة جريمة القتل وسفك الدماء، وأنها لون من الوان الفساد في الأرض، إلا أنهم قد سفكوا دماءً كثيرة، بل قد قتلوا بعض أنبياء الله ورسله كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المائدة: ٧٠]؛ وذلك لخبث أنفسهم، ولسوء طويتهم، ولم يكتفوا بذلك بل يعملون جاهدين – في كل وقت وحين– على ايجاد أسباب الفساد في الأرض، كنشر الحروب، وزرع القلاقل والفتن؛ وبذلك يحصل الفساد في الأرض بهلاك الحرث والنسل، وقد اعتبر الزمخشري أن الفساد في الأرض يكون بـ"تهييج الحروب والفتن" واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٥](٣)، وهذه الآية، وإن كانت في سياق الحديث عن المنافقين، إلا أن هذا الوصف ينطبق على اليهود أيضا. ولا يَستبعد المراقب الحصيف المتابع لمجريات الأحداث التي تجري في عالمنا المعاصر أن معظم الحروب والصراعات المنتشرة في العالم اليوم يقف خلفها اليهود وهم من يشعلون فتيلها ويؤججون نارها، فالفساد فإفساد الأرض بالحروب دأبهم وعملهم، وصدق الله القائل عنهم: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ٢٩٨/٢.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٣٥٢/٢، باختصار وتصرف.
(٣) الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ١٧٩/١.

ومما يدل على أن استباحة القتل وسفك الدماء لون من الوان الفساد في الأرض ما ذكره الله تعالى عن فرعون عندما أكثر من التقتيل في بني إسرائيل فقد عدَّ الله تعالى فعله ذلك لونا من الوان الفساد في الأرض قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤] ولما حرض الملأ فرعون على موسى ومن آمن معه اتهموهم بالفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولحرمة الدماء، وعظم جريمة القتل وسفك الدماء، فإن الله تعالى أول ما يقضي يوم القيامة بين الخلائق في الدماء، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أول ما يقضى بين الناس، يوم القيامة، في الدماء**"(١).

فسفك دماء الأنفس المعصومة– بغير–حق لون من ألوان الفساد في الأرض، فليحذر المسلم من اقتراف هذه الكبيرة فإنها من موجبات دخول النار، والتعرض للعنة الله وغضبه الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣]، وإنه وعيد شديد، ما توعد الله بمثله على معصية قط، لمن سفك الدماء بغير وجه حق واستباح قتلها، بغيا وفساداً في الأرض.

النتيجة الثانية: السحر

إفساد السحرة في الأرض عظيم وشرهم مستطير، والسحر من كبائر الذنوب، ومن السبع الموبقات التي حذر منها رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**اجتنبوا السبع الموبقات** قالوا يا رسول الله وما هن قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**"(٢).

وقد حرم الله تعالى السحر في جميع شرائع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأخبرنا في كتابه الكريم أن الشياطين هي أول من علمت الناس السحر في الأرض قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ لهذا يُحرم تعلم السحر، ومن استحل تعلمه يكفر بنص قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "السحر محرم في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة، بل أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر وعثمان وحفصة بنت عمر وعبدالله بن عمر وجندب بن عبدالله رضي الله عنهم أجمعين"(٣).

---

(١) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا برقم، الناشر: دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧- ١٩٨٧برقم (٦١٦٨)، وينظر: صحيح مسلم، مرجع سابق برقم (٣١٧٨).

(٢) صحيح البخاري، مرجع سابق برقم (٢٥٦٠)، وصحيح مسلم، مرجع سابق برقم (١٢٩).

(٣) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، مجموع فتاوى ابن تيمية، الإصدار الثاني، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، مكان النشر: المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤١٦هـ -١٩٩٥م، ٣٨٤/٢٩.

وهل السحر حقيقة، وله تأثير في افساد الناس، أم أنه مجرد خيالات لا حقيقة لها في الواقع؟ يجيب عن هذا التساؤل لإمام القرطبي قائلا: "ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦] ولم يقل: تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾، ونرد عليهم قائلين: إننا لا ننكر أن من جملة السحر التخييل وغيره، ولكن قد ثبتت حقيقة السحر بأمور ورد بها النقل جوّزها العقل، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فهذه الآية ذكرت السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنّهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة"(١).

وقد صف الله تعالى في كتابه الكريم عمل السحرة بأنه من الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٧٩-٨٢]، قال صاحب المنار: "هذه الآيات الأربع في خلاصة ما قاوَمَ به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له، فقال فرعون، كما حكى الله عنه: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ائتوني بكل ساحر واسع العلم راسخ فيه متقن للسحر وفنونه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ المطلوبون الموصوفون بما ذكر: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ بعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولا أو أن يلقوا هم ما عندهم، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيهم الصناعية السحرية ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أي هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو السحر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ أي: سيظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة، لا آية خارقة، فالله سيبطله بما جئت به من الحق من عنده، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطل وفساد، أي لا يجعل عمل المفسدين صالحا، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين"(٢).

فأعمال السحرة كلها من الفساد في الأرض، فكم فرقوا بين الأحبة! وكم زرعوا من عداوات بين الأقربين! وكم تسببوا بإزهاق أنفس بريئة، !كل ذلك من أجل من أجل عرض من الدنيا قليل، ولبئس العمل عملهم، ولبئس السعي سعيهم، فقد باعوا نصيبهم من الآخرة بعرض من الدنيا قليل، فبئست البضاعة، وبئس البائع والمشتري، فليتب إلى الله تعالى كل من يمارس الفساد في الأرض بسحره، قبل أن يندم يوم لا ينفع مال ولا بنون، وليحذر كل مؤمن صادق في إيمانه من التردد على السحرة من أجل تكثير سوادهم، والترويج لبضاعتهم فإنه إن فعل ذلك فهو على خطر عظيم، فعن جابر بن عبد الله

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ت(٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ٤٦/٢: باختصار وتصرف يسير، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٢٥٤/١.

(٢) محمد رشيد بن رضا ت(١٣٥٤هـ)، تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠م، ٣٨٢/١١ باختصار وتصرف.

رضي الله عنهما عن النبيّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: "**مَنْ أتى كاهِناً فصدَّقَهُ بما قالَ؛ فقد كفَر بما أُنْزِلَ على محمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**"(١).

النتيجة الثالثة: أكل أموال اليتامى

اهتم الإسلام بشأن اليتامى اهتماماً بالغاً، فأمر بالإحسان إليهم، والسعي في رعايتهم، وضمان سبل العيش الكريم لهم؛ حتى ينشئوا أعضاءً نافعين في مجتمعهم، وقد ورد في ذلك آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تأمر بحسن معاملتهم والإحسان إليهم، منها قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾ [الماعون: ١-٢]، والإحسان إلى اليتامى من أهدافه، حفظ كرامتهم وصون نفسياتهم؛ حتى لا يشعروا بالنقص عن غيرهم من أفراد المجتمع.

وقد عدّ الله تبارك وتعالى العبث بأموال اليتامى والتصرف بها بغير وجه حق لونا من ألوان الفساد، ورتب على ذلك أشد العقاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]. وعدَّ النبي صلى الله عليه وسلم أكل أموال اليتامى بغير حق، من السبع الموبقات، وصاحبه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب والآثام، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**اجتنبوا السبع الموبقات**" قالوا يا رسول الله وما هن؟ **قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**"(٢)، ولخطورة هذا الأمر، وجه النبي صلى الله عليه وسلم من كان ضعيفاً من الصحابة إلى ألا يتولين مال يتيم، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله قال: "**يا أبا ذر، أني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على أثنين، ولا تولين مال يتيم**(٣).

وخشية من الإفساد في أموال اليتامى كان الصحابة رضي الله عنهم يتحرجون عن مخالطة مال اليتامى أو الأكل منها، فعن ابن عباس قال لما أنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ ﴾ [النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠ ﴾[البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه"(٤).

---

(١) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق المعروف بالبزار ت(٢٩٢هـ) مسند البزار، تحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م، برقم (١٨٧٣) وينظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب الناشر: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، برقم (٣٠٤٤).

(٢) صحيح البخاري مرجع سابق، برقم (٢٥٦٠)، وصحيح مسلم، مرجع سابق، برقم (١٢٩).

(٣) صحيح مسلم، مرجع سابق، برقم (٣٤٠٥). .

(٤) صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢٨٧١) المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية قام

وحِرْصُ الصحابة رضى الله عنهم عن السؤال عن اليتامى بكيفية التعامل معهم ومع أموالهم يبين لنا "كيف كانت عناية المؤمنين في حفظ أحكام الله واتقاء حدوده، وكيف شدد الله تعالى الأمر في شأن اليتامى، فلم يأذن الله تعالى بالقيام عليهم إلا بقصد الإصلاح، ولا بمخالطتهم إلا بمخالطة الأخوة، وكيف وجه القلوب مع هذا إلى مراقبته، والتذكر لإحاطة علمه، ومن الناس من يتَّخَذَ من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾، وسيلة للتلذذ بنغمات قارئيها، أو للتعبد بألفاظها دون الاهتداء بمعانيها، فهو لا يزول عن إفساده ولا يرجع إلى رشاده، ومنهم من يتزيا بزي المتقين، ويظهر في صورة الصالحين، حتى إذا ما جُعِلَ وصيا على مال يتيم، لا ترى لذلك التحنث أثرا في عمله، ولا ذلك السمت حائلا دون خطئه، فهو إن أصلح شيئا يفسد أشياء، ولا يراقب الله تعالى، ولكن يراقب الحسبة والقضاء؛ ذلك أن الإسلام قد صار تقاليد صورية، وحركات بدنية، وليس له تأثير في صالح الأعمال، وإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأبدان، ولا يعبأ بالحركات والأقوال ولكن ينظر إلى القلوب والأرواح، وما ينشأ عن صلاحها من خير وإصلاح"(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ تهديد عظيم من الله تعالى لمن يتولون على اليتامى والسبب في ذلك "أن اليتيم وليس له أحد يراعاه فكأنه تعالى يقول: لما لم يكن لليتيم أحد يتكفل بمصالحه فأنا ذلك المتكفل وأنا المطالب لوليه، وقيل: والله يعلم المصلح الذي يلي من أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، ويعلم المفسد الذي لا يلي من إصلاح أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، فاتقوا أن تتناولوا من مال اليتيم شيئاً من غير إصلاح منكم لمالهم"(٢).

فمن تولى على مال يتيم عليه أن يقوم عليه خير قيام وأن يصلح هذا المال وينميه بكل الطرق المشروعة، وأن لا يتسبب في فساده بأي صورة من الصور، وأن يجعل عمله هذا العمل من أسباب دخوله الجنة، فعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال بإصبعيه السبابة والوسطى**"(٣).

النتيجة الرابعة: قطيعة الأرحام

أمر الله تعالى في كتابه الكريم بصلة الأرحام في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقد أوصى الله تعالى بصلة الأرحام وحذر الله تعالى من قطيعتها، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]. والمعنى: "اتقوا الله بطاعتكم إياه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس رضي

بإعادة فهرسته وتنسيقه: أحمد عبد الله عضو في ملتقى أهل الحديث تحقيق الألباني: حسن. وينظر: أسباب النزول للواحدي (ص: ٧٤) لباب النقول في أسباب النزول - (ص: ٣١) العجاب في بيان الأسباب (ص: ١٧٠)

(١) محمد رشيد بن رضا، تفسير المنار مرجع سابق، ٢٧٥/٢، باختصار وتصرف.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين ت(٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ، ٤٠٦/٦، باختصار وتصرف يسير.

(٣) صحيح البخاري، مرجع سابق، برقم (٥٥٤٦).

الله عنهما وغيره"[١]، وقد أعلى الله تعالى من مكانة الأرحام وتكفل بوصل من وصلها وبقطع من قطها، وعد قطعها لونا من ألوان الفساد في الأرض، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال: له مه قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم:** ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٤]"[٢]، وقد واختلف أهل العلم في تحديد الرحم الذي تجب صلته وتحرم قطيعته قال الإمام النووي: " الرحم هي كل رحم محرمة بحيث لو كان احدهما ذكرا والاخر انثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل أولاد الاعمام ولا أولاد الاخوال، واحتج أصحاب هذا القول بأنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ونحوه، وجواز ذلك في بنات الاعمام والاخوال، وقيل: إن الرحم يشمل كل رحم من ذوي الارحام في الميراث يستوي المحرم وغيره وهذا القول هو الصواب، وأما صلة الرحم فهي الاحسان إلى الاقارب على حسب حال الواصل والموصول فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك"[٣]، وقد تنوعت أقوال أهل التفسير في بيان معنى الإفساد المراد في قوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ ﴾ فقال: "قتادة: إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وتقطعوا أرحامكم. وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام"[٤]، وقال الإمام ابن كثير: "هذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة"[٥].

ولما يحدثه قطع الأرحام من فساد في العلاقات الاجتماعية بين الأرحام والأقارب، فقد توعد الله قاطع الرحم بعدة عقوبات، فمن قطع رحمه فقد "حقت عليه لعنة الله وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل، قال تعالى ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ ﴾ ثم قال الله عن قاطعي الأرحام ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ أي: أفلا يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين قطعوا أرحامهم ﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ أي: بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون"[٦]، وأعظم عقوبة تصيب قاطع الرحم- إن مات مصراً على فساده في هذا الجانب – أن الله تعالى يحرمه من دخول الجنة، فعن جبير بن مطعم، رضى الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "**لا يدخل الجنة قاطع**" قال ابن أبي عمر قال سفيان: يعني قاطع رحم"[٧].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق صـ٢٩٣.
(٢) صحيح البخاري، مرجع سابق، برقم (٤٤٥٥).
(٣) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر : دار إحياء التراث العربي- بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٢، ١١٣/١٦، باختصار وتصرف.
(٤) الشوكاني، فتح القدير مرجع سابق، ٦/ ٤٨١.
(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٣١٨/٧.
(٦) القرطبي، الجامع الأحكام القرآن، مرجع سابق، ٢٤٥/١٦.
(٧) صحيح البخاري، مرجع سابق برقم (٥٥٢٥)، وصحيح مسلم، مرجع سابق برقم (٤٦٣٦).

فليحرص المسلم على صلة أحامه، وليتفقدهم بين الفينة والأخرى، وإذا حصل منهم قطيعة أو جفاء فليكن مبادرا لوصلهم؛ لينال الأجر والمثوبة من الله تعالى، وحتى لا يكون من المفسدين في هذا الجانب.

المطلب الثالث: من عقوبات المفسدين في القرآن الكريم

أمرنا الله تعالى في كتابه الكريم أن نتأمل في أحوال المفسدين، وأن ننظر في عاقبة أمرهم؛ حتى نعتبر بذلك فلا نسلك مسالكهم ولا نقع في الفساد الذي وقعوا فيه، قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال الله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام وهو يخاطب قومه محذرا إياهم من عاقبة أعمالهم الفاسدة: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦]، والمعنى: "تذكروا عاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزي والنكال؛ ليصير ذلك زاجراً لكم عن العصيان، والفساد والمقصود من ذلك أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا، والمقصود من ذلك حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولا والترهيب ثانيا"(١).

وقد توعد الله تعالى المفسدين في الأرض بجملة من العقوبات في الدنيا والآخرة، وسوف نتناول بعضها في هذا المطلب حسب ما يقتضيه المقام، على النحو التالي:

العقوبة الأولى: الإصابة بالآفات والعلل

التغير الذي يجده الناس في طعامهم وشرابهم، والآفات التي تحصل في زروعهم وثمارهم، والعلل التي يجدونها في أجسادهم وأبدانهم، والقحط والجفاف الذي يجدونه في أراضيهم ومزارعهم، كل ذلك قد يكون عقوبة من الله تعالى يعاقب بها الخلق بسبب ما أحدثوه من فساد في مختلف مجالات حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسة، وغيرها من المجالات التي يمكن أن يدخل إليها الفساد، وعندما يعم الفساد البر والبحر بسبب كسب الناس وأفعالهم عندها تحلهم عليهم عقوبات من الله تعالى تتناسب مع ما أحدثوه من فساد وخراب، وصدق الله القائل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى "ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بما كسبت أيدي الناس، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين والقحط والجدوب وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها وسلب منافعها أو نقصانها أمورا متتابعة يتلو بعضها بعضا، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض وكلما أحدث الناس ظلما وفجورا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ٣١٥/١٤، باختصار وتصرف.

وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم، وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم حكما قسطا وقضاء عدلا، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله في الطاعون: إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل[١] وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام وفي نظيرها عظة وعبرة، وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببا لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سببا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ولا يعطفون إن استعطفوا[٢]، وتارة بأمراض عامة وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره وبالله التوفيق"[٣].

لله در العلامة ابن القيم! فقد أعطاه الله نفاذا في البصر والبصيرة، وكانه في كلامه هذا يتحدث عن حال الناس في عالمنا المعاصر، ويصف واقعنا المعاش الذي دب إليه الفساد في معظم أرجائه وأجزائه، فحلت بالعالم النكبات ونزلت بالبشرية البليات، وكل ذلك نتاجا طبيعيا لفساد معظم البشرية، ولما كسبته أيديهم، واقترفته جوارحهم[٤]، ولا نجاة لهم من عواقب ذلك إلا بالرجوع إلى الله تعالى، والتوبة إليه قبل الوقوف بين يديه والعرض عليه، عند ذلك لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

العقوبة الثانية: الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة

من جرائم الإفساد في الأرض الحرابة[٥]، وتشتمل هذه الجريمة على عدة مفاسد، ففيها اعتداء على أنفس الناس وأموالهم وأعراضهم، وفيها قطع للطريق وإخافة للسبيل، وهذه الجريمة تمس أمن المجتمع كله فينتشر

---

(١) يشير إلى حديث صحيح في ذلك، فعن أسامة ابن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **"الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه"** صحيح البخاري، مرجع سابق، برقم (٣٢١٤) صحيح مسلم، مرجع سابق، برقم (٤١٠٨).

(٢) فعن عبد الله بن عمر قال أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: **"يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم"**. ت الأرناؤوط المؤلف: وماجة اسم أبيه يزيد ينظر: أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني ت(٢٧٣هـ) سنن ابن ماجه تحقق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م برقم (٤٠١٩)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حديث حسن لغيره، وحسنه الألباني في السلسة الصحيحة برقم (١٠٦).

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبدالقادر الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧-١٩٨٦، ٣٢٦/٤، باختصار وتصرف يسير.

(٤) ولعلَّ ما أحدثه (فيروس كورونا) في عالمنا من رعب وفزع، ما هي إلا عقوبة من الله تعالى عاقب بها البشرية، بسبب ما أحدثوه من فساد في مختلف مجالات حياتهم، وضحاياه بحسب آخر الإحصائيات إلى تاريخ كتابتنا لهذا البحث ٢٠٢١/٧/١٠، وصلوا إلى٣،٩٩ مليون، والمصابين به والحاملين له، وصلوا إلى ١٨٥ مليون، وفي هذا دليل على أن سنة الله تعالى لا تتغير، وأن ما أصاب الناس إنما هو بسبب ما كسبته أيديهم، فهل يتعظ الناس فيصلحوا علاقتهم بربهم عز وجل؟!

(٥) الحرابة في اللغة "من الحرب وهي نقيض السلم، يقال: حاربه محاربة وحرابًا، أو من الحرَب بفتح الراء: وهو السلب"، وفي الاصطلاح: هي: "هي إشهار السلاح بقصد استلاب مال الغير، والمحاربون هم: الذين يعرضون للناس بالسلاح فيغصبونهم المال مجاهرة أو الذين يخرجون لإخافة السبيل أو للقتل خفية، أو لمجرد قطع الطريق، اعتمادا على القوة، وتسمّى قطع الطريق والسرقة الكبرى، ويفرّق بينها وبين السرقة: بأن الحرابة: هي البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرة اعتمادا على الشوكة، أما السرقة: فهي أخذ المال خفية، فالحرابة، تكتمل بالخروج على سبيل المغالبة وإن لم يؤخذ مال، أما السرقة: فلا بد فيها من أخذ المال على وجه الخفية"، ينظر: محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي ت(٥٤٣هـ)، أحكام القرآن لابن العربي أحكام القرآن،

الخوف والرعب في أوساط الناس الآمنين، وكل هذه الجرائم من الفساد في الأرض؛ لهذا شدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة وجعل عقوبتها عقوبة مغلظة، وسمى فاعليها بأنهم مفسدون في الأرض، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾ [المائدة: ٣٣]، وهذه الآية لها سبب نزول، فعن أنس رضي الله عنه قال قدم رهط من عكل على النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في الصفة فاجتووا المدينة[١] فقالوا يا رسول الله أبغنا رسلا فقال: ما **أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها** حتى صحوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الذود فأتى النبي صلى الله عليه وسلم الصريخ فبعث الطلب في آثارهم فما ترجل النهار حتى أتي بهم فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا قال أبو قلابة: سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله"[٢]، وهذه الآية وإن كانت نزلت في شأن هؤلاء الرهط إلا أنها حكمها عام ويشمل، وبهذا قال جماهير أهل التفسير، قال أهل التفسير: "والحق أن هذه الآية تعمّ العرنيين وغيرهم لمن ارتكب ما تضمنته، ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ، وأن ذلك يصدق على كل من وقع منه ذلك، سواء كان مسلماً أو كافراً، في مصر وغير مصر، في كل قليل وكثير، وجليل وحقير، وأن حكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أيّ ذنب من الذنوب، بل من كان ذنبه هو التعدّي على دماء العباد وأموالهم"[٣].

وقد بين أهل التفسير المراد بمحاربة الله ورسوله المذكورة في هذه الآية، والتي هى من أسباب الفساد في الأرض فقالوا: "محاربة الله محاربة شرعه وقصد الاعتداء على أحكامه، وقد عُلِمَ أن الله لا يحاربه أحد فذكره في المحاربة لتشنيع أمرها، وعلى هذا فتسمية "المحاربة لله عز وجل" في الآية مجاز؛ لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب، قال سعيد بن جبير: أراد بالمحاربة لله، الكفر بعد الاسلام، وقال مقاتل: أراد بها الشرك، والمراد بمحاربة الرسول الاعتداء على حكمه وسلطانه، فإن العرنيين اعتدوا على إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخذة لتجهيز جيوش المسلمين، وقيل: إن محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون في عصره ومحاربة المسلمين تكون من بعد عصره، والآية جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكباراً لحربهم وتعظيماً لأذيتهم، والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه : بمعاصيه

تحقيق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٩٤/٢، وينظر: منصور بن يونس البهوتي الحنبلي ت (١٠٥١هـ)، كشاف القناع، تحقيق محمد حسن محمد الشافعي الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الاولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ٢٠١/١٠، وينظر: محمّد بن محمّد المرتضى الزَّبيدي، تاج العروس، للزبيدي من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية٢٤٩/٢، ينظر: د محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والالفاظ الفقهية الناشر: دار الفضيلة القاهرة، ٥٥٩/١.

(١) **" فاجتووا المدينة"** أي أصابهم الجوى: وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها، يقال: اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة" ينظر: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٨٤٤/١.

(٢) صحيح البخاري، مرجع سابق، برقم (٦٣٠٦)، الواحدي، أسباب النزول مرجع سابق، صـ ١٩٦، السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مرجع سابق، صـ ٨٦، ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، ٢٠٣/٢.

(٣) الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ٢٩٩/٢، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق ٩٤/٣، القرطبي، الجامع الأحكام القرآن، مرجع سابق، ١٥٠/٦.

ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي وحكم أمته حكمه وهو لهم أسوة"[١]، والمتأمل العقوبات الدنيوية التي تلحق أهل الحرابة من قاطعي الطريق يجد أنها أربع عقوبات ١- القتل من غير صلب إن قتلوا فقط. ٢- القتل مع الصلب: إن قتلوا وأخذوا المال. ٣- قطع اليد والرجل من خلاف إن أخذوا المال، لا غير. ٤- النفي من الأرض إن أخافوا الطريق فقط، ولم يقتلوا نفسا ولم يأخذوا مالا، أما عقوبتهم في الآخرة ـ إن لم يتوبوا ـ فقد قال الله عنها ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[٢].

ولعظم فساد جريمة الحرابة في الأرض فقد ضُوعفت لهم العقوبة في الشريعة الاسلامية، من بين سائر الحدود في الإسلام، وبيان ذلك أن: "القتل العمد عدوانا يوجب القتل، ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص، فغُلِّظ ذلك في قاطع الطريق وصار القتل حتما لا هوادة فيه ولا يجوز العفو عنه، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى في غير قاطع الطريق، فغُلِّظ في قاطع الطريق بقطع الطرفين، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع في حقهم بين القتل والصلب؛ لأن بقاءهم مصلوبين في ممر الطرق يكون سببا لاشتهار إيقاع هذه العقوبة، فيصير ذلك زاجرا لغيرهم على الإقدام على مثل هذه المعصية، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفي من الأرض"[٣].

وبمثل هذا العقوبات تتجلي عظمة هذا الدين وذلك أن "المنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده، إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلاّ السيف، إن من أهداف العقوبات في الإسلام هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف والفساد، فالعقوبة وسيلة وليست غاية، أما اعتماده الأول فعلى تربية القلب، وتقويم الطبع، وهداية الروح، فهذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعاً؛ ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعاً؛ ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية، والهدف من ذلك إقامة مجمع إسلامي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي"[٤].

العقوبة الثالثة: الطرد من رحمة الله

إذا تشرب إنسان ما الفساد وسرى هذا الداء في كيانه، فعند ذلك تصدر منه عدة أعمال فاسدة، فأول ما تفسد علاقته مع الله تعالى، بأن ينقض عهد العبودية بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، ثم تفسد علاقته بأقرب الناس إليه من أهلها وأرحامه فيقطعهم ولا يصلهم، ثم يستمر في مسلسل فساده حتى يُعرف بأنه من المفسدين في الأرض، عند ذلك تحل عليه لعنة الله تعالى، فيطرد من رحمته، فيكون من الخاسرين في دنياه وأخراه، وصدق الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥]، وهذه الآية ذكرت ثلاث صفات من

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، ٢٠٣/٢، الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ٢٩٩/٢، ابن عاشور، لتحرير والتنوير، مرجع سابق، ١٨٠/٦.

(٢) للوقوف على أقوال الفقهاء بتوسع في أحكام الحرابة والمحاربين ينظر: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي ت(٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، تحقق: محمد صادق القمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تاريخ الطبع: ١٤٠٥هـ، ٥٤/٤، ابن العربي، أحكام القرآن، مرجع سابق، ١١١/٧، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق ١٤٨/٦.

(٣) أحمد بن مصطفى المراغي ت(١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ١٠٤/٦.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٣٥٦/٢، باختصار وتصرف.

اتصف بواحدة منها حلت عليه لعنة الله تعالى وكانت عاقبة أمره أن يطرد من رحمة الله تعالى وله في الآخرة مايسؤه من العذاب، وقد ذكر الله تعالى صفات هؤلاء الأشقياء الفاسدين بعد أن ذكر صفات أوليائه من عباده الصالحين قال الإمام الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية، أتبعها بذكر حال الأشقياء، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب، ليكون البيان كاملاً"(١).

قال أهل التفسير وفي العهد الذي ينقضه هؤلاء الأشقياء من المفسدين في الأرض ثلاثة أقوال. **الأول:** أنه ما عهد إلى أهل الكتاب من صفة محمد صلى الله عليه وسلم والوصية باتباعه، قاله ابن عباس ومقاتل. **والثاني:** أنه ما عُهد اليهم في القرآن، فأقروا به ثم كفروا، قاله السدي. **والثالث:** أنه الذي أخذه عليهم حين استخرج ذرية آدم من ظهر، قاله الزجاج. ونحن وإن لم نذكر ذلك العهد، فقد ثبت بخبر الصادق، فيجب الايمان به(٢) ،وفي الذي أمر الله أن يوصل: ثلاثة أقوال أيضا: **أحدها:** الرحم والقرابة، قاله ابن عباس وقتادة والسّدّي. **والثاني:** أنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قطعوه بالتكذيب، قاله الحسن. **والثالث:** الإيمان بالله، وأن لا يفرق بين أحد من رسله، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قاله مقاتل. **وفي فسادهم في الأرض ثلاثة أقوال: أحدها:** استدعاؤهم الناس إلى الكفر، قاله ابن عباس. **والثاني:** أنه العمل بالمعاصي، قاله السّدّيّ، ومقاتل. **والثالث:** أنه قطعهم الطريق على من جاء مهاجرا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ليمنعوا الناس من الإسلام. وقد يكون الفساد بالظلم في النفوس والأموال وتخريب البلاد، ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ واللعنة من الله الإبعاد من خيري الدنيا والآخرة إلى ضدهما من عذاب ونقمة: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾؛ لأن المراد جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها"(٣).

وقد جاء ذكر هذه الصفات في سورة البقرة ووصفهم الله تعالى بأنهم فاسقين وحكم عليه أنهم في الآخرة من الخاسرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، **وهناك علاقة بين الفسوق وزيادة الضلال** "لأن الفسق يرين على القلوب ويكسب النفوس ظلمة فتتساقط في الضلال المرة بعد

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق٩/ ١٧٦.

(٢) فعن بن عباس عن النبي ﷺ قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال {ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون}، ينظر: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، الناشر: مؤسسة قرطبة، القاهرة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، برقم(٢٤٥٥)، وقال شعيب الأرناؤوط عن هذا الحديث: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر من رجال مسلم، وثقه أحمد وابن معين وذكره ابن حبان في الثقات، وقال النسائي: ليس بالقوي. ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس.

(٣) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ٤٢٨/١٦، وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، ٣٨/١، و الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ٤٢٤/١، وشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة الطبع: ١٤١٥هـ، ٧/ ١٣١.

الأخرى على التعاقب، حتى يصير لها دربة، فكأنه قيل: هؤلاء فاسقون، وما من فاسق إلا وهو ضال فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق على نحو طريقة القياس الاقتراني، وإما مسوق لبيان أن الضلال والفسق أخوان، فحيثما تحقق أحدهما أنبأ بتحقق الآخر على نحو قياس المساواة إذا أريد من الفاسقين المعنى اللقبي المشهور فلا يكون له إيذان بتعليل، وإما لبيان أن الإضلال المتكيف في إنكار الأمثال إضلال مع غباوة فلا يصدر إلا من اليهود وقد عرفوا بهذا الوصف"(١).

وهناك أيضا علاقة بين الفسوق والفساد في الأرض، ويوضح هذه العلاقة صاحب الظلال رحمة الله عليه بقوله: "الفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتماً، فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض، ومنهج الله بعيد عن تصريفها، وشريعة الله مقصاة عن حياتها، وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال، وللحياة والمعاش؛ وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء، إنه الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله، ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدي به عباده المؤمنين"(٢).

فمن العقوبات التي ينزلها الله تعالى بالمفسدين في الآخرة أن يطردهم من رحمته، وإذا طرد الله تعالى عبداً من رحمته فمعنى ذلك بأن له سوء العذاب يوم القيامة هو من الخاسرين، إن لم يتب إلى الله تعالى وتتداركه رحمة الله تعالى.

العقوبة الرابعة: الزيادة في العذاب الأخروي

الدرجات العالية في الجنة يجعلها الله لأهل التقوى الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]، قال سيد قطب: "فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله، ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا، ولا يبغون فيها كذلك فسادا، أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة، تلك الدار العالية السامية"(٣).

وفي المقابل، فإن الذين يريدون العلو في الأرض ويبغون فيها فسادا، فإن الله تعالى يُضاعف لهم العذاب الأليم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: "﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصَدُّوا۟ ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: عن طريق الحق، وهي: طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر، وقيل: المراد بالصدّ عن سبيل الله: الصدّ عن المسجد الحرام، والأولى العموم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٣٦٦/١.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٢٤/١.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٢٧١٤/٥.

﴿ كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ أي: زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم. وقيل: المعنى: زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم، أي: أشد منه"(١).

وقد وردت أقوال في هذه الآية تبين صفة العذاب الذي يزيده الله تعالى في الآخرة لأهل الفساد **أحدها:** أنها عقارب كأمثال النخل الطوال، رواه مسروق عن ابن مسعود. **والثاني:** أنها حيَّات كأمثال الفِيَلَة، وعقارب كأمثال البغال، رواه زرٌّ عن ابن مسعود. **والثالث:** أنها خمسة أنهار من صُفْر مُذَابٍ تسيل من تحت العرش يعذَّبون بها. ثلاثة على مقدار الليل، واثنان على مقدار النهار، قاله ابن عباس. **والرابع:** أنه الزمهرير، ذكره ابن الأنباري. وقال الزجاج : يخرجُون من حرِّ النار إلى الزمهرير، فيتبادرون إلى النار من شدة برده"(٢). وقال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ أي: "بما كانوا في الدنيا يعصُون الله، ويأمرون عباده بمعصيته، فذلك كان إفسادهم"(٣).

والتفصيل في بيان زيادة العذاب لأهل الفساد في الآخرة المقصود به "تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم، والتعريض بالتحذير من الوقوع في شراكهم. وزيادة العذاب: مضاعفته والتعريف في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ تعريف الجنس المعهود حيث تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النحل: ٨٥]؛ لأن عذابهم لما كان معلوما بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود وأما عذاب صدهم الناس فلا يخطر بالبال فكان مجهولا فناسبه التنكير في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا ﴾ والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ للسببية. والمراد: إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر"(٤).

ومن مقتضى عدل الله تعالى أنه سبحانه لا يسوي في الآخرة بين مصير أهل الإيمان وأهل الفساد، قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨]، وهنا قد يبدو سؤال فحواه: إنا نرى بعض أهل الفساد والظلم يتمتعون بصنوف من النعم في المأكل والمشرب والمطعم، وقد نرى بعض أهل الإيمان والتقوى يعيشون حياة الكفاف، وقد يؤذون ويضطهدون في دنياهم فكيف نفسر ذلك؟، وللجواب عن هذا التساؤل نقول: إن هذه الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وليست دار جزاء وحساب؛ ولهذا نرى هذا التفاوت والتناقض الظاهر في حياة الناس، وقد جعل الله تعالى الدار الآخرة، ليتم فيها الجزاء ويحصل فيها العدل والإنصاف، ولتستقيم فيها الموازين التي كانت مختلة في دنيا الناس، وهذا اليوم آت لا شك فيه، ليجزي الله فيه أهل الإيمان والتقوى بالدرجات العالية في الجنة، وليجزي أهل الفساد جزاء فسادهم ويزيد لهم من عذابه الشديد في ناره، وصدق الله القائل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨].

(١) الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ٢٥٤/٤.
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، ١٢١/٤.
(٣) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ١٧.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ٢٤٩/١٤، باختصار وتصرف.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى وآله وأصحابه أجمعين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أمابعد:

فهذا البحث مساهمة مني في خدمة كتاب الله تعالى، وقد خَلُصْتُ فيه إلى النتائج التالية:

١- الفساد من الأمور التي نهى الله تعالى عنها في كتابه الكريم، لماله من نتائج وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة وأوجب على عباده مدافعته؛ لأن انتشار الفساد ـ بدون مدافعة ـ سبيل لفساد الحياة على وجه هذه الأرض.

٢- هناك أسباب كثير تؤدي للفساد، منها ما يصل بصاحبه للكفر ومنها دون ذلك، فليحذره كل من أراد لنفسه النجاة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

٣- للفساد نتائج عملية تؤثر في حياة الناس وواقعهم، وتحول حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، كسفك الدماء وممارسة السحر، وأكل أموال اليتامى وأموال الناس بالباطل، وقطيعة الأرحام.

٤- جعل الله تعالى للمفسدين عقوبات عاجلة في الدنيا كالإصابة بالآفات والأمراض والعلل والآخرة، وخراب الديار والعمران، وقد تقام على بعض المسدين بعض الحدود في الدنيا، ووهناك عقوبات شديدة تنتظرهم في الآخرة، فيطردهم الله تعالى من رحمته ويزيد لهم العذاب في الآخرة في نار جهنم إن لم يتوبا من فسادهم وبغيهم.

التوصيات

١- الحذر من الوقوع في الأسباب المؤدية للفساد؛ لأنها ستهلك صاحبها في الدنيا والآخرة.

٢- يوصي الباحث الباحثين والدارسين بدراسة النتائج العملية للفساد دراسة موسعة، من خلال القرآن الكريم؛ لما لها من آثار سيئة في حياة الناس وواقعهم.

٣- يوصي الباحث الدعاة والخطباء بتحذير الناس من الأسباب المؤدية للفساد، وتوعيتهم بنتائجه، وبيان عواقبه في الدنيا والآخرة.

٤- دعوة من وقع في سبب من أسباب الفساد إلى سرعة التوبة والعودة إلى الله تعالى قبل فوات الأوان

وفي الختام أسأل الله بمنه وكرمه أن يوفقنا لفعل الطاعات، وترك المنكرات وأن يجنبنا من متابعة الأهواء ومضلات الفتن، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويعم به النفع في الدارين، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

المصادر المراجع

أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، كتاب الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، دار النشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، أسباب نزول القرآن ت(٤٦٨هـ)، تحقق: كمال بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، الناشر: اتحاد الكتاب العرب

أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت(٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

أبو الفرج عبد الرحمن بن على ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٢٢هـ.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت(٥٩٧هـ)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، العجاب في بيان الأسباب، دار النشر: دار إبن الجوزي الدمام، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م.

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت(٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن تحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.

أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ت(٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت الطبعة: الثالثة ١٤٠٧هـ.

أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق المعروف بالبزار ت(٢٩٢هـ) مسند البزار، تحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن ت(٣١٠هـ)، تحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣.

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، وعادل عبد الحميد العدوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦.

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧-١٩٨٦.

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية ت(٧٥١هـ)، التفسير القيم، تحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية إشراف الشيخ إبراهيم رمضان الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى- ١٤١٠هـ.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ت(٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين ت(٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ، ٤٠٦/٦ باختصار وتصرف يسير.

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، مجموع فتاوى ابن تيمية، الإصدار الثاني، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، مكان النشر: المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي ت(٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، تحقق: محمد صادق القمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت تاريخ الطبع: ١٤٠٥هـ.

أحمد بن مصطفى المراغي ت(١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ -١٩٤٦م.

سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن دار النشر: دار الشروق، القاهرة، بدون تاريخ.

شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية . بيروت سنة الطبع: ١٤١٥هـ.

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت(٩١١)، لباب النقول في اسباب النزول، ضبط وتصحح احمد عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين المناوي القاهري ت(١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف الناشر: عالم الكتب- القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

عبد المجيد بن عزيز الزنداني، كتاب توحيد الخالق، الناشر دار السلام للطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية ١٩٨٥م.

محمد الطاهر بن عاشور، التحرير التنوير، الناشر: دار سحنون للنشر، تونس ١٩٩٧.

محمد الغزالي، الفساد السياسي: الناشر: دار نهضة مصر الطبعة الأولي، بدون تاريخ.

محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا برقم، الناشر: دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧- ١٩٨٧.

محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي ت(٥٤٣هـ)، أحكام القرآن لابن العربي أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ت(١٢٥٠هـ)، فتح القدير: الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت الطبعة: الأولى- ١٤١٤هـ.

محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني المرتضى الزَّبيدي، تاج العروس، للزبيدي من جواهر القاموس: تحقيق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية.

محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة الأولى.

محمد رشيد رضا ت(١٣٥٤هـ)، تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠م.

محمد متولي الشعراوي ت(١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم عام ١٩٩٧م.

محمد ناصر الدين الألباني ت(١٤٢٠هـ) صحيح وضعيف سنن أبي داود، الناشر: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب الناشر: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والالفاظ الفقهية الناشر: دار الفضيلة القاهرة، بدون تاريخ.

مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. بدون تاريخ.

منصور بن يونس البهوتي الحنبلي ت (١٠٥١هـ)، كشاف القناع، تحقيق محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان الطبعة الاولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.